﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: 72]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بينَ عدمِ الاكتراثِ بشرِّهِم، وعدمِ الطمعِ في خيرِهِم ونوالِهِم

مُناسبةُ الآيةِ لما قبلَها أنّ اللّه تعالى لمّا حكى عن نوحٍ ﷺ "أنّهُ لا يخافُ منهُم بوجهٍ مِنَ الوجوهِ؛ وذلكَ لأنّ الخوفَ إنّما يَحصُلُ بأحدِ شَيئَينِ؛ إمّا بإيصالِ الشَّرِّ أو بقَطعِ المَنافِعِ، فَبَيَّنَ فيما تقدَّمَ أنّهُ لا يخافُ شَرَّهُم، وبيَّنَ بهذه الآيةِ أنّهُ لا يخافُ منهُم بسَببِ أن يَقطعُوا عنهُ خَيرًا"[1]؛ لأنَّه لم يقمْ بدعوتِهِ؛ ليتقاضى مُقابلَها أجرًا مادّيًّا مُغرِيًا، فهو يَخشَى عليه الضّياعَ؛ بسببِ إعراضِ الأغلبيّةِ الغالبةِ مِن قومِهِ عنه وعن دعوتِهِ، إنّما يَطلبُ أجرَهُ عليها مِنَ اللّه – وحدَهُ – وقد أمرَهُ أن يكونَ مُسَلِّمًا إليه جميعَ أمرِهِ، بلا تأخُّرٍ ولا تردُّدٍ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: (التّولّي) يكونُ بمعنى: الإعراضِ، ويكونُ بمعنى: الاتّباعِ؛ قالَ اللّه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد ﷺ: 38]؛ أي: تُعرِضوا عنِ الإسلامِ.

وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51]؛ فمعناهُ: مَن يتّبعهم وينصرهم[3]، و(وَلِيَ) أصلٌ يدُلُّ عَلَى قُربٍ؛ يُقالُ: تَبَاعَدَ بَعدَ وَلْيٍ؛ أيْ: قُرْبٍ[4]. وتَوَلَّى إذا عُدِّيَ بنفسِهِ اقتَضى معنى الوَلَايَةِ، وحُصُولُهُ في أقربِ المَواضِعِ منه، يُقالُ: وَلَّيتُ سَمعي كذا، ووَلَّيتُ عيني كذا، ووَلَّيتُ وجهي كذا: أقبَلتُ بهِ عليهِ، قالَ اللّه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/285.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 289.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 15/315.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).

ﷻ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: 144]، وإذا عُدِّيَ بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا اقتَضَى معنى الإعراضِ وتَركِ قُربِهِ، كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: 63][1].

2) ﴿أَجْرٍ﴾: الأجرُ: جزاءُ العملِ... أجرَ يَأْجُرُ، والمفعولُ: مَأجورٌ. والأجيرُ: المُستأجِرُ. والإجارةُ: ما أُعطيتَ مِن أجرٍ في عَمَلٍ. وآجرتُ مَمْلوكي إيجارًا فهو مُؤجَرٌ[2]، ويُستعمَلُ الأجرُ بمعنى الإجارةِ، وبمعنى الأجرةِ، وجمعُهُ: أجورٌ[3]، و(أجَرَ) أصلٌ هو الكِرَاءُ عَلَى العَمَلِ[4]، الأجرُ والأجرةُ: ما يعودُ مِن ثوابِ العملِ دُنيَويًّا كانَ أو أُخرَويًّا، نحو قولِهِ تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: 27]، والأُجرَةُ في الثّوابِ الدُّنيَويِّ، وجَمعُ الأجرِ أُجُورٌ[5]. والأجْرُ: الثّوابُ. تقولُ: أجَرَهُ اللّه يَأْجِرُهُ ويَأْجُرُهُ أجرًا[6].

المَعْنى الإجماليُّ:

تفويضُ نوحٍ أمرَهُ لربِّ العالمين، تجسيدٌ لأسمى درجاتِ اليقين

يخبرُ اللّه تعالى عن خطابِ نوحٍ لقومِهِ، أنّه قالَ لهم: "فإنْ دامَ تَوَلِّيكم عَمّا جِئتُ بِهِ إليكُم مِن توحيدِ اللّه ورفضِ آلهتِكُم، فلستُ أبالي بكُم؛ لأنّ تَوَلِّيَكُم لا يَضُرُّني في خاصَّتِي، ولا قَطَعَ عنِّي صِلَةً منكُم، إذ ما دعوتُكُم إليهِ وذَكَّرتُكُم بِهِ ووعَظتُكم، لَم أسألْكُم عليهِ أجرًا، إنّما يُثيبُني عليهِ اللّه تعالى؛ أي: ما نَصَحتُكم إلّا لوجهِ اللّه تعالى، لا لغرضٍ مِن أغراضِ الدُّنيا، ثمّ أخبَرَ أنّه أمَرَهُ أن يكونَ مِنَ المُسلمينَ، مِنَ المُنقادينَ لأمرِ اللّه الطّائِعينَ لهُ"[7].

(1) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(2) الخليل، العين: (أجر).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (أجر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(5) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (أجر).
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/89.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الفاء) في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾:

التَّوكُّلُ على اللهِ تعالى يُفضي إلى التَّجرُّدِ والتّسليمِ له

في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، دلّتِ الفاءُ على تفريعِ الكلامِ اللّاحقِ على السّابقِ، فالشّرطُ في قولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾، "مُرتَّبٌ على الجزاءِ قَبلَهُ؛ أي: إن بقيتُم على إعراضِكُم عن تذكيري بعدَ أمري لَكُم، وعدم مُبالاتي بما أنتُم عليهِ، فلا ضَيرَ عليَّ"[1]، فالفاءُ لترتيبِ التَّوَلِّي على ما سَبَقَ ذِكرُهُ؛ أي: إنْ أعرضْتُم عن تذكيري بعدما شاهدْتُم صحّةَ دعوتي، فإنّي غيرُ مُبالٍ بكُم، وبما يأتي منكُم[2].

دلالةُ التّعبيرِ في ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾:

اتّباعُ الحقِّ يُسْرٌ ونفعٌ، والتّولِّي عنه مَشقّةٌ وكلفةٌ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، عبَّرَ النّظمُ الكريمُ بصيغةِ التَّفعُّلِ دونَ التّفعيلِ، فلم يَقُلْ: (فإن وُلِّيتُم) للدّلالةِ على الكلفةِ، بالتَّوَلِّي عنِ الحقّ؛ أي: "كَلَّفتُم أنفسَكُم الإعراضَ عنِ الحقِّ، بعدَ عجزِكُم عن إهلاكي"[3]؛ إيماءً إلى أنّهم قد عَلِمُوا أنّهُ حقٌّ، واتّباعُ الحقِّ لا يُحوِجُ إلى التَّكلُّفِ، أمّا الإعراضُ عنه فإنّه لا يكونُ إلّا بكلفةٍ ومُعاناةٍ.

دلالةُ (الفاء) في ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾:

مهمّةُ الرّسولِ البلاغُ بالحُجّةِ، وسَوْقُ مرادِ اللهِ على ما يحبُّ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، أدخلَ النّظمُ الكريمُ الفاءَ في صدرِ الجملةِ؛ لأنّها واقعةٌ جوابًا للشّرطِ مُفتتحة بالنّفي، فلابدَّ مِنَ الفاءِ الرّابطةِ لبيانِ أنّ انتفاءَ سؤالِهِ الأجر ينفي أن تكونَ هناك أسبابٌ جديرةٌ لتولِّيهم عنه، وفي ذلك تزكيةٌ لدعوتِهِ، وإلزامٌ لهم بالحُجّةِ، فليسَ الدّاعي لدعوتِكُم كسبَ الأجرِ؛ بل محض

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/48.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/164.

النّصحِ والوعظِ، وطلب النّجاةِ لكم، "فلم يكُنْ تَوَلِّيكم عن تفريطٍ منِّي؛ لأنّي سُقتُ الأمرَ على ما يُحِبُّ"[1].

دلالةُ الشّرطِ في الآية:

قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ بأسلوبِ الشّرطِ عن تبرئةِ دعوتِهِ من أسبابٍ جديرةٍ تحملُهُم على التَّولِّي عن قبولِها؛ أي: إن أعرضتُم عن تذكيري ونصيحتي، "فما كانَ عندي ما ينفّرُكُم عني وتتّهموني لأجلِهِ، من طَمَعٍ في أموالِكُم وطلبِ أجرٍ على عظتِكُم"[2]، فزكّى دعوتَهُ بأنّها خاليةٌ من الأغراضِ الّتي يطلبُها مَن يبغي الانتفاعَ، فلمّا ظهرَ لكُم ذلكَ، كانَ ينبغي أن لا تَتولَّوا لظهورِ صدقي في دعوتي، لِتجرُّدي عن طلبِ الانتفاعِ؛ "والمعنى: فإنْ كنتُم قد تَولَّيتُم فقد عَلِمتُم أنّي ما سألتُكُم أجرًا فتتَّهمُوني برغبةٍ في نَفعٍ يَنجَرُّ لي من دعوتِكُم، حتّى تُعرِضوا عنها شُحًّا بأموالِكُم، أو اتِّهامًا بتَكذيبي، وهذا إلزامٌ لَهُم، بأنّ تَوَلِّيَهم لم يكُنْ فيه احتمالُ تُهمَتِهم إيّاهُ، بتَطلُّبِ نَفعٍ لنفسِهِ. وبذَلكَ برّأ نفسَهُ من أن يكونَ سببًا لِتَوَلِّيهم، وبهذا تَعَيَّنَ أنَّ المُعَلَّقَ بهذا الشّرطِ هو التَّحقُّقُ بينَ مَضمونِ جملةِ الشّرطِ، وجُملةِ الجزاءِ لا وُقوعُ جُملةِ الجزاءِ عندَ وُقُوعِ جُملةِ الشّرطِ"[3].

صـدقُ دعـوةِ الرّسولِ مُتجسِّدٌ في تـجـرُّدِهِ عن طلبِ الانتفاعِ الذّاتيّ

دلالةُ التَّولِّي في قولِهِ: ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، مجيءُ فعلِ التَّولِّي في فعلِ الشّرطِ في الآيةِ يُرادُ منهُ التَّولِّي الّذي قد حَصَلَ واستمرَّ، وليسَ أنّه تولٍّ سيكونُ لاحقًا، فلمّا "كانَ تَوَلِّيهم عن دعوتِهِ قد وَقَعَ واستمرَّ، تَعَيَّنَ أنَّ جَعْلَ التَّوَلِّي في جملةِ الشّرطِ مُرادٌ بهِ

التَّـولِّي إعـراضٌ عـن حـقٍّ قـامَتِ الأدلّـــةُ عـلى صـحّـتِـهِ إلى ما يُناقضُهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/164.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/360.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/340 - 241.

ما كانَ حَصَلَ لِيُرتِّبَ عليه جوابَ الشّرطِ الّذي هو شيءٌ قد وَقَعَ أيضًا"[1]، وهذا مَلمَحٌ مِنَ الحوارِ الطّويلِ الّذي خلّدَهُ اللّه في القرآن؛ حيث إنّهم كذّبوا واستمرُّوا في كذبِهم، فرأينا نوحًا ﷺ قالَ لَهُم: "﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن ما دعوتُكُم إليه، فلا مُوجِبَ لِتولِّيكُم؛ لأنّهُ تبيَّنَ أنّكُم لا تُولّون عن باطلٍ إلى حقٍّ؛ وإنّما تُولّون عن حقٍّ قامَتِ الأدلّةُ على صحّتِهِ، إلى باطلٍ قامَتِ الأدلّةُ على فسادِهِ"[2].

دلالةُ النفي بلفظِ (ما):

يكون عطاءُ الرّسولِ مَبرورًا، حين لا يريدُ جزاءً ولا شُكورًا

قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، ساقَ لَهم صدقَ دعوتِهِ، بنفي طلبِ الأجرِ، فإنّ نفيَ طلبِ ما يطلبُهُ النّاسُ في العادةِ يُثيرُ الانتباهَ إلى المطلوبِ بدلًا عن ذلك؛ فكان نفيُ سؤالِ الأجرِ، يتضمَّنُ دعوةً لهم إلى التّفكيرِ بشأنِهِ، وبصدقِ دعوتِهِ؛ لأنّ عملَهُ إنّما هو لمحضِ رضوانِ اللّه؛ ولذلكَ قالَ: "﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على دعوتي، وعلى إجابتِكُم، فتقولوا: هذا جاءَنا ليأخذَ أموالَنا، فتمتنعونَ لأجلِ ذلك"[3].

نكتةُ ورودِ حرفِ الجرِّ ﴿مِّنْ﴾:

لا يطمحُ الرّسولُ للأجرِ الفاني، وإنّما يتُوقُ لأجرِ اللهِ الباقي

قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، أدخلَ النّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ الزّائدِ (من) في سياقِ النّفي للدّلالةِ على الاستغراقِ في النّفي[4]؛ قطعًا لأسبابِ الاتّهامِ والنّفورِ عنِ الدّعوةِ، وتأكيدًا لتزكيةِ دعوتِهِ عنِ المنافعِ الزّائلةِ الّتي يبتغيها أهلُ الدّنيا، والسّياقُ يحتملُ وجهين: "أحدُهما: فما سألتُكُم مِن أجرٍ تستثقلونَهُ، فتمتنعون مِنَ الإجابةِ لأجلِهِ... والثّاني: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، إن انقطعَ عنّي ثَقُلَ عليّ، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، وقد حَصَلَ بالدّعاءِ لكُم، إنْ أجبتُم أو أبيتُم[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/240.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 11/240.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 11/240.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/164.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/240.

دلالةُ التّنكيرِ في لفظِ ﴿أَجۡرٍ﴾:

مَـن تعلَّقَت همّتُهُ بما عندَ اللهِ، زَهَدَ فيما عندَ مَن سِواه

قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عنِ الأجرِ، بصيغةِ التّنكيرِ؛ استغراقًا لكلِّ ما يُطلَقُ عليه أجرٌ، مهما قلَّ، فالتّنكيرُ هنا للتّقليلِ والتّهوينِ؛ أي: ما سألتُكُم أيَّ أجرٍ كان، قليلًا أو كثيرًا. وعلّةُ عدمِ أخذِهِ أيَّ لونٍ مِنَ الأجرِ، مهما قلَّ؛ "لأنّهُ أرادَ الأجرَ الأعلى، فلو أخذَ منهُم؛ فلسوفَ يأخذُ على قدرِ إمكاناتِهم، ولكنَّ الأجرَ مِنَ اللّه تعالى، هو على قدرِ إمكاناتِ اللّه ﷻ، وفارقٌ بينَ إمكاناتِ المحدودِ العطاء وهو البشرُ، ومَن له قدرةُ عطاءٍ لا نهايةَ لها، وهو اللّه ﷻ"[1].

المَوقعُ البيانيُّ للجملةِ المُستأنَفةِ في الآية:

غـايـةُ دعـوةِ النّبيّين تحصيلُ ما عندَ اللهِ يومَ الدّين

قولُهُ تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، جملةٌ مُستأنَفةٌ للتّعليلِ؛ إذ إنّ العاقلَ لا يُقْدِمُ على فعلٍ ما بلا غايةٍ، فاستأنفَ إثرَ نفيه طلبَ الأجرِ منهم؛ لبيانِ غرضِهِ، فهو "تعليلٌ لاستغنائِهِ ﷺ عنهم؛ أي: ما ثَوابي على العِظةِ والتّذكيرِ إلّا عليه تعالى يُثيبُني بهِ آمَنتُم أو تَولَّيتُم"[2].

سرُّ إيثارِ النّفي بـ ﴿إِنۡ﴾:

انتقاءُ أداةِ النّفي الأكثرِ تأكيدًا يُظهرُ بلاغةَ التّركيبِ ودقّتَهُ

آثرَ النّظمُ الكريمُ حرفَ النّفي ﴿إِنۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، ولم يأتِ النّفي بـ (ما)؛ لأنّ النّفيَ بأداةِ النّفي (إن) أبلغُ وأكثرُ تأكيدًا؛ وأغلبُ استعمالاتِها في القرآنِ الكريمِ أنّها تقترنُ مع (إلّا)، والقصرُ بها مع إلّا يكونُ أكثرَ تأكيدًا، أمّا (ما) فتأتي مع الحصرِ لكن ليسَ هو الغالبَ عليها، ويُلاحَظُ أنّ هناك تجانسًا في افتتاحِ الحرفين (إنْ) و(إلّا)، فكلاهما افُتتحَ بالهمزةِ المكسورةِ، وهذا يعطي إضافةً للقوّةِ في التّعبيرِ بهذين الحرفين معًا؛ وعليه فإنّ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6103.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/164.

قولُهُ جلَّ شأنُه: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، قد سِيقَ على وجهِ التّأكيدِ؛ بيانًا لاكتفائِهِ بالأجرِ المُستَحَقِّ لهُ على وعدِ اللّه تعالى له.

الغرضُ مِن أسلوبِ القصرِ في الآية:

حصرُ الأجرِ على اللهِ عطاءٌ ويقينٌ بأنّه مَصدرُ كلِّ نعمةٍ

عبَّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، بأسلوبِ القصرِ على تأكيدِ نفي طلبِهِ الأجرَ منهم، وحصر ما يبتغيه مِن أجرٍ، بأنّه كائنٌ مِنَ اللّه تعالى، فهو "تعميمٌ لنفي تَطَلُّبِهِ أجرًا على دعوتِهم، سواءٌ منهم أم مِن غيرِهم. فالقصرُ حقيقيٌّ، وبهِ يحصُلُ تأكيدُ جملةِ: ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ﴾ مع زيادةِ التّعميمِ. وطَريقُ جزمِهِ بأنّ اللّه يُؤجِرُهُ على ذلكَ، هو وَعدُ اللّه إيّاهُ بهِ بِما أوحَى إليه"[1].

دلالةُ استعمالِ الحرفِ ﴿عَلَى﴾:

وعدُ اللهِ مُحقَّقٌ مُنجَزٌ، وأجرُهُ مُميَّزٌ مُعجزٌ

عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ على ثباتِ الأجرِ واستحقاقِهِ لنوحٍ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾، ويدلُّ حرفُ الاستعلاءِ على تمكُّنِ الاستحقاقِ؛ وذلك لأنّ وعدَ اللّه مُؤكَّدٌ، فقولُهُ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ تأكيدٌ لَهُم، بأنّ أجرَهُ ثابتٌ مُحقَّقٌ لا يزولُ ولا يُنسَخُ، وهذا يبيّنُ علّةَ النّفي في قولِهِ: ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ﴾؛ لأنّ مَن وُعِدَ بالأجرِ مِنَ الوهّابِ الكريمِ، فأيُّ أجرٍ آخرَ يبتغيه؟!، ولهذا لم يقُلْ: (من اللّه)؛ إذ لم يُردْ أن يبيّنَ ابتداءَ الأجرِ بأنّه كائنٌ مِنَ اللّه تعالى، بل أرادَ أن يُبيّنَ الاستحقاقَ الثّابتَ على اللّه تعالى؛ إذ إنّ ما يَعِدُ اللّه تعالى به فهو حقٌّ مُحقَّقٌ، لا مريةَ فيه.

دلالةُ نفي الأجرِ مِنَ النّاسِ وطلبِهِ مِنَ الله تعالى في الآيةِ:

ما عندَ النّاسِ يَنْفَدُ، وما عندَ اللهِ باقٍ

قولُهُ تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، نفى نوحٌ ﷺ سؤالَهُ الأجرَ منهم، وأثبتَهُ مِنَ اللّه تعالى؛ لأنّه لمّا عَلِمَ أنّ عطاءَ البشرِ محدودٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/241.

على قدرِ الجَهْدِ، وأنّ الأجرَ مِنَ اللّه تعالى لا ينفدُ ولا ينقطعُ، جعلَ طلبَهُ الأجرَ مُتعلِّقًا بكمالِ العطاءِ الّذي يكونُ مِنَ الخالقِ ﷻ.

دلالةُ التّعميمِ لعبارةِ ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾:

تكرَّرَ في النّظمِ الكريمِ مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، على لسانِ كثيرٍ مِنَ الرُّسلِ ﷺ على مرِّ العصورِ؛ لأنّ غايتَهُم واحدةٌ، ومصدرَهُم واحدٌ، ومآلَهُم ذاتُهُ، ومطلبَهُم عينُهُ، وهو رضوانُ اللّه تعالى، والإخلاصُ له بالدّعوةِ، بلا أجرٍ مِنَ النّاسِ، فهُم يمحّضونَ النّاسَ النّصحَ والدّعوةَ لإخراجِهِم إلى نورِ التّوحيدِ والإيمانِ.

الـرُّسـلُ أبـنـاءُ عَـلّاتٍ، أبوهُم واحدٌ وأمّهاتُهم شتَّى

دلالةُ الواوِ العاطفةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾:

الجملةُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ معطوفةٌ على الجملةِ في جوابِ الشّرطِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، فلمّا نفى طلبَ الأجرِ "عَطَفَ عليه غرضًا آخرَ، وهو اتّباعُ الأمرِ خوفًا مِن حُصُولِ الضُّرِّ"[1]، والتّقديرُ "فإنْ تَولَّيتُم فَأُمِرتُ أن أكونَ مِنَ المسلمينَ؛ أي: أمَرَني اللّه أنْ أتَّبِعَ الدِّينَ الحقَّ، ولو كنتُ وحدِي. وهذا تَأييسٌ لَهُم بأنّ إجماعَهُم على التَّوَلِّي عنهُ لا يَفُلُّ حَدَّهُ، ولا يَصُدُّهُ عن مُخالفةِ دينِهِمُ الضَّلّالِ"[2].

الـرَّسـولُ مَـأمورٌ بـالإسـلام، ولـو كـانَ وحـدَهُ دونَ الأنام

نكتةُ التّعبيرِ بـ﴿وَأُمِرْتُ﴾:

آثرَ النّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، أن يُعبِّرَ بالفعلِ الماضي المبنيِّ للمفعولِ؛ لأنّه لا يخفى أنّ الآمرَ بالإسلامِ هو اللّه تعالى، فعدمُ التّصريحِ بِهِ اكتفاءً بدلالةِ السّياقِ طلبًا للإيجازِ، ولا سيّما أنّ ذكرَهُ وردَ قريبًا: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ﴾، فلو قالَ: (إلّا على اللّه وأمرَني اللّه) لكانَ أبعدَ عنِ البلاغةِ بتكرارِ اللّفظِ المذكورِ قريبًا بلا غرضٍ. كما أنّ بناءَ الفعلِ

حـضـورُ المعنى في الأذهـــان، يغني عنِ الذّكرِ باللّسان

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/164 - 165.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/241.

لِلمَفعولِ يُصيّرُ المصدرَ في قولِهِ: ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ نائبَ الفاعلِ، وفي ذلك تنبيهٌ على الاهتمامِ بهذه الكينونةِ المأمورِ بها؛ ترغيبًا لها بأن جعلَهُ عُمدةً في الكلامِ، بإقامتِهِ مَقامَ الفاعلِ، وأصلُهُ فُضلة[1].

سرُّ التّعبيرِ بكونِهِ مِنَ ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾:

عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عنِ الأمرِ بأن يكونَ واحدًا مِنَ المُسلمينَ، لا بأن يكونَ مُسلِمًا؛ لأنّ الأمرَ بذلك أبلغُ في الدّلالةِ على الاتّصافِ بالمأمورِ بهِ، فهو يدلُّ على أنّ هناك فئةً قد شُهِرَت بهذا الوصفِ، فالأمرُ بأن يكونَ منهم دليلٌ على أنّه قد بَلَغَ أن يكونَ مُتَّصِفًا بذلك، والأمرُ به يدلُّ على الأمرِ بشدّةِ الاتّصافِ به بحيث يكونُ واحدًا منهُم، وذلك بأن يُحقِّقَ الصّفةَ على الوجهِ الأكملِ ليكونَ منهُم.

الاعتبارُ بصفةِ الجماعةِ أبلغُ منه بصفةِ الفردِ

دلالةُ الأمرِ بالكينونةِ في ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ جاءَ الأمرُ بالكينونةِ، ولم يقُلْ: (وأُمِرتُ بالإسلامِ)؛ للدّلالةِ على الاتّصافِ بأقصى ما يمكنُ مِنَ الاستسلامِ؛ أي: ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ "كَونًا أتخلَّقُ بهِ فلا أنفَكُّ عنهُ"[2]، فيكون مُتَّصفًا بهذه الصّفةِ وجوديًّا، فيكون الوصفُ راسِخًا به كرسوخِ مَن يأتي للوجودِ بصفةٍ لا تَنفكُّ عنهُ، وفي ذلكَ مُبالغةٌ في الاستسلامِ.

الإسلامُ إيمانٌ بالوجدانِ، وإقرارٌ باللّسانِ، وعَمَلٌ بالأركانِ

دلالةُ التّعريفِ بـ(اللّام) في ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عَرَّفَ المُسلمينَ بالألفِ واللّامِ، والمرادُ بهِ تعريفُ الجنسِ هنا؛ أي: أمرَني أن أكونَ مِن هذا الجنسِ، وليسَت للعهدِ؛ إذ لم يَجْرِ لهم ذكرٌ، وكونه كان أوّلَ الرّسلِ، فلم يُوجَدْ قبلَهُ فئةٌ يُقالُ لها: إنّهُم مُسلمونَ مع رسولٍ أُرسِلَ

دعوةُ نوحٍ أن يكونَ مِنَ المُسلمينَ دليلٌ على عظمةِ الإسلامِ للهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/165.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/165.

إليهم، وقد وَرَدَ أنّ نوحًا ﷺ هو أوّلُ الرُّسلِ، والظّاهرُ أنّه قبلَ نوحٍ لم يُبعَثْ رسولٌ، ومِن هنا ألمحَ بعضُ الدّارسينَ إلى خطأ المؤرّخينَ الّذين قالوا: إنّ إدريسَ ﷺ كانَ قبلَ نوحٍ، والقرآنُ يقولُ: ﴿*إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [النّساء: 163]، وقد جاءَ في حديثِ الشّفاعةِ الطّويلِ عندَ البخاريّ قولُ أهلِ المَوقِفِ لنوحٍ ﷺ: «يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أهلِ الأرضِ؛ وسَمَّاكَ اللّه عَبدًا شَكُورًا»"[1].

مُناسبةُ ختامِ الآيةِ:

تـقـدُّمُ الانـقـيـادُ يـنـاسـبُـهُ الـخـتـمُ بـوصـفِ الإسـلامِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ أن يختمَ الآيةَ بصفةِ الاستسلامِ دونَ الإيمانِ وغيرِه؛ للدّلالة على أنّه مَأمورٌ بالاستسلامِ الّذي يُناسِبُ قولَهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[2]، فلمّا طلبَ منهُم أن يَجمعُوا أمرَهُم ويَقضُوا بهِ إليهِ، ذَكَرَ عَقِبَ ذلك أنّهُ مَأمورٌ بأن يُسْلِمَ وينقادَ لذلك، فناسبَ آخرُ الآيةِ أوّلَها، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ أي: "الّذين لا يأخذونَ على تعليمِ الدّينِ شيئًا، ولا يطلبونَ به دنيا، وهذا مُقتضَى الإسلامِ، والّذي كلُّ مُسلمٍ مَأمورٌ بهِ"[3].

المتشابِهُ اللّفظيّ:

تـنـاسـبُ الأولى مـــعَ إســـلامِ نـوحٍ بأمرِ اللهِ، والثّانيةُ مع الرّدِّ على المُشكِّكينَ في الإيمانِ

التّشابهُ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

(1) ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري شرح صحيح البخاريّ: 6/372.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/285، والخفاجيّ، عناية القاضي: 5/48.
(3) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 10/72.

[يونس: 104]. وقد خصّ النّظمُ الكريمُ كلَّ آيةٍ بخاتمةٍ، حيث خُتِمَت الآيةُ الأولى بقولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، وخُتِمَتِ الآيةُ الثّانيةُ بقولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والسِّرُّ في ذلك أنّ الآيةَ الأولى بدأت بقولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، فلمّا كانَ التَّوَلِّي مُسبِّبًا عن عدمِ انقيادِهِم وإسلامِهِم للّه تعالى؛ ناسبَ أن يُعلِنَ نوحٌ ﷺ إسلامَهُ وانقيادَهُ للّه تعالى فقالَ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، أمّا الآيةُ الثّانيةُ فبدأت بذكرِ الشّكِّ، ونقيضُ الشّكِّ هو الإيمانُ، فكانَ مِنَ الأنسبِ أن يَختمَ بما يُناقِضُ الشّكَّ بإعلانِ إيمانِهِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأجرُ، والجزاءُ:

الأجرُ خاصٌّ بثوابِ العملِ النّافعِ، والجزاءُ مُماثِلٌ لِلعملِ بمثلِهِ

(أجر) أصل هو الكِرَاءُ عَلَى العَمَلِ[1]، الأجرُ والأجرةُ: ما يَعُودُ من ثوابِ العملِ دُنيَويًّا كانَ أو أُخرَويًّا، نحو قولِهِ تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾[2]، والجزاءُ: قِيَامُ الشَّيءِ مَقَامَ غَيرِهِ ومُكَافَأَتُهُ إيَّاهُ. يُقَالُ: جَزَيتُ فُلانًا أجزِيهِ جَزَاءً، وجَازَيتُهُ مُجَازَاةً. وَهَذَا رَجُلٌ جَازِيكَ مِن رَجُلٍ؛ أي: حَسبُكَ. ومَعنَاهُ: أنَّهُ يَنُوبُ مَنابَ كُلِّ أحَدٍ[3]. والجَزَاءُ: الغناءُ والكفايةُ، وهو أيضًا: ما فيهِ الكفايةُ مِنَ المقابلةِ، إنْ خيرًا فَخَيرٌ، وإنْ شرًّا فَشَرٌّ. يُقالُ: جَزَيتُهُ كذا وبكذا، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: 76][4]. فالأجرُ يُقالُ في النّفعِ دونَ الضُّرِّ، بخلافِ الجزاءِ، والجزاءُ فيه مُقابلةُ الخيرِ بالخيرِ والشَّرِّ بالشَّرِّ، وأمّا الأجرُ فهو النّفعُ الموضوعُ على عملٍ يُقدَّمُ ويُقامُ بهِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(2) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).
(4) الرّاغب، المفردات: (جزا).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»